انسجام الشرور مع وجود الله

يسعى أكثر المؤمنين بالأديان الإلهية في سبيل تبرير الشرور وحلّ مشكلة الشر دون التراجع عن أي من مواقفهم حول الله وصفاته، مدعين أن لا تنافي بين ما يُسمّى بالشرّ وبين شيء ممّا يتبنّونه حول الله والصفات). وإن عددا من الأجوبة والردود المطروحة لحل إشكالية الشر يمكن جمعها وضم بعضها إلى بعضها الآخر دون تجاهل المسافات الفاصلة بينهما، أو تناسي حدود كل منها، لبناء نظرية جامعة حول العدل الإلهي. وها نحن نقدم في ما يأتي أهم تلك الأجوبة.

١ـ الشر عدم

يرى عدد كبير من العلماء في شرق الأرض وغربها أن الشر أمر وهمي وعدمي) لا يحتاج إلى علة كي ننسبه إلى الله أو إلى غيره، لنسأل بعد ذلك ما الذي دعا الله المتصف بتلك الصفات التي نعرفها إلى خلق ما يُعدّ شرا. فالفقر والمرض والموت هي أمور عدميّة (عدم الثروة، عدم الصحة، وعدم الحياة) وليس لها علة سوى عدم العلة».

ولتوضيح هذا المدعى الذي يبدو أنه من البديهيات حاول بعض الفلاسفة إقامة ما يشبه البرهان لتوضيحه. والغرض الأساس الذي يرمي إليه أصحاب هذه النظرية التي نسبها فلاسفة كالمحقق الداماد إلى أفلاطون (٣٤٨ـ٤٢٧ ق.م)، هو الإجابة عن الأسئلة من قبيل من الذي خلق الشرور وأوجدها ؟ وكيف يمكن صدور الشر عن موجود خير محض؟ وهذه النظرية إن صحت تحلّ مشكلة الشر وفي الوقت عينه تثبت بطلان الثنوية، وذلك لأنّ كون الشر عدما لا يبقي أي مبرر للبحث عن علة له لتكون علته أهريمن كما يرى الزرادشتيون أو غير أهريمن لو فرض وجود غيرهم ممن يؤمن بمثل هذه النظرية . (والشر أعدام فكم قد ضلّ من ... يقول بالیزدان ثمّ الإهرمن) .

الشر الوجودي

هذا وفي المقابل نجد بعض الفلاسفة يتمسكون بالمقدمتين الآتيتين لإثبات أن بعض الشرور ليست أمورا عدميّة ، فبالاستناد الى المقدمتين :

أـ الألم شكل من أشكال الإدراك

ب ـ كلّ إدراك أمر وجودي.

فينتج منه أن الألم أمر وجودي

وبعبارة أخرى: اللذة والألم كلاهما يدلان على وجود شيء، وهما شكلان من أشكال الإدراك والوعي بشيء، أحدهما إدراك ما نحبّ الملائم)، والثاني إدراك ما نكره (المنافر)، فلا يمكن تصنيفهما في خانة العدم والأعدام. مثلا قطع أحد الأعضاء من بدن الإنسان أمر عدمي (زوال الاتصال بين العضو والبدن)، ولكن هل يمكن الحكم على الألم الناشئ عنه بأنه عدم ؟

إذا، يواجهنا هنا شرّان أحدهما عدمي هو القطع والآخر وجودي هو الألم الناجم عنه. ولا يخفى أن التمايز بين هذين الأمرين لا يخفف من شرّ الوجودي منهما ولا يقلل منه.

ولا يبدو أنّ الحكم على الشر بأنه عدم يمكنه حلّ المشكلة من جذورها، وذلك لأنّ لسائل أن يسأل: لماذا ترك الله تعالى (الذي هو خيرٌ محض) بعض الفراغات العدمية، ولم يملأها بوجود تنطبق عليه صفة الخيرية ؟ وبعبارة : أوضح لماذا لم يشغل الوجود محلّ هذا العدم ؟ والأجوبة والردود الآتية هي خطوات مكملة لهذا الجواب الأولي.

٢ـ نسبية الشر

الجواب المعتمد الثاني في معالجة مشكلة الشر هو القول بأنّ الشر أمر نسبي، أي إنّ الشرّ يكون شرًا عندما يُقاس إلى شيء فإذا غيرنا المقيس إليه لا يبقى شرا. أو فقل: لا وجود لشيء في الكون هو شر بالذات وليس فيه جهة خير أبدًا. مثلا خاصيّة اللدغ للأفعى والعقرب، هي سلاح تدافعان به عن نفسيهما، فهو خيرٌ للأفعى والعقرب، وإن كان الإنسان أو غيره قد يتضرر من هذه الخاصية، ولكنّ هذا الضرر هو ضرر بالعرض وبالنظر إلى غير من يتسلح بهذه الوسيلة الدفاعية.

يرى الإنسان نفسه محور عالم الوجود، ومن هنا يحكم على الأشياء بأنها خير أو شر انطلاقا من مصلحته، وبعد قياسها إلى نفسه .

نسبية الشرّ هي مفهوم يُستفاد منه أحيانًا لإثبات أن الشر عدمي أيضًا، وهذه النسبية هي جواب مستقل لا ينبغي الخلط بينه وبين الجواب الأول. وعلى أساس ذلك لو فرض أنّ بعض الشرور بل كلها أمور وجودية، مع ذلك يمكن تبريرها بنسبيّتها. وعلى الرغم مما تقدّم كله يبدو لنا أن سؤالا بقي دون جواب حتى الآن، وهذا السؤال هو: لماذا لم يخلق الله الكون بطريقة لا يتوقف معها تحقق النفع والمصلحة لكائن على تضرر كائن آخر أو إصابته بشيء مما استفاد منه الكائن الأول؟ والجواب الثالث بتقديرنا هو الحل الصالح للرد على هذه الإشكالية.